

# « هنري ميلر »

بقلم فيليب راف  
ترجمة ماهر البطوطي

في تاهيتي ، ود. هـ. لورنس « في المكسيك » و « تاوس » . رحل ميلر الى اليونان ليظهر نفسه مسن ادران اتصاله الطويل الامد بالفرنسيين ويحسن من اماله في احراز تجديد روحي . وقد كتب يقول : « لقد وصلت الى التناسق الذي ابغيه اخر الامر في بلاد اليونان ، فهناك تضاهلت وتطهرت ، وعدت الى التناسب الانساني السليم ، واصبحت على استعداد لتقبل نصيبي والاعطاء من مجموع ما اخذته . ولقد مرت بميلاد جديد حقيقي بينما كنت اقف عند قبر اجامنون » . ويتحدث ميلر عن اليونانيين باعتبارهم اناسا « لا هدف لهم ، فوضويين ، آدميين عقلا وروحا وبطريقة منافرة » ، وهو بهذا انما يطابق بينهم وبين قيمه الخاصة . ورغم انه يعترف بأنه لم يقرأ حرفا من « هومر » فهو يعتقد ان اليونانيين لم يتغيروا منذ تلك الازمان السحيقة تغيرا جوهريا .

اما كتابات ميلر التي يستبين فيها استعدادها الفائق لتسطير النثر الوصفي فهي تلك المقالات التي وضعها عن زيارته ليسيثياي وكنوسوس وفايستوس ، وغيرها من المواطن الانية . وبعض فقرات هذه التقارير مثال طيب على جرأته الخطابية . ووسيلته الطبيعية للكتابة هي المبالغة في القول . لكنه يمتلك احساسا حيويا يمكنه من الاشارة الى موضوعات ورموز محددة ، وهذا يسمح له بدوره بالحصول على قدر من التحكم في لفته المتعاطمة . وهو يدمن بصفة خاصة استخدام الاصطلاحات والصور التي يستميرها من العلم ، خصوصا علم البيولوجي وعلم الفلك . وهناك طريقة له لا تتغير ، وهي ان يوزع هذه الاستعارات من الناحية الاسلوبية بطريقة توحى بخلق تأثير من عدم التناسب والفرع . وهي حيلة يصبر من خلالها تماما عن وجهه من العلم ومن آثار العلم جميعا ، فميلر ينتمي الى اتحاد كارهي التقدم ومحطمي الآلات في الادب المعاصر . ورغم انه يفتقد الدافع الذي يجعله يدين بالولاء للتقليد ، فمن المشكوك فيه ايضا ان يرضى به رفاقه المفكرين زميلا لهم في جماعتهم . وبالإضافة الى ذلك ، فقد استسلم ميلر مؤخرا ليوهه القبيحة واتقاد لها انقيادا ، وغيبياته هي من نوع جامع مانع ، لا تعرف حدودا ولا تقيم شبهات . وجريا على ذلك، فهناك فصل غريب في كتاب « عملاق ماروسي » يصف فيه المؤلف مقابلة له مع عراف ارميني في اثينا ، ويصادق ميلر على دعواه انه لن يموت ابدا وانه مكتوب عليه ان يقوم برسالات ذات طبيعة دينية « ستعود بسعادة عظيمة على العالم » . ويمكن لنا ان نحمل هذه النبوءة على محمل قطعة خيالية من قطع جنون العظيمة ، او على انها من الاماني الطبيعية التي يمر بها كل انسان .

ولو ان القراء وجدوا احدت عمل ادبي خطه براع ميلر مغيبا لامالهم ، فليس امامهم كي يستعيدوا شيئا من الاحساس باهميته سوى ان يرجعوا الى رواياته الثلاث الاولسي : مدار السرطان Tropic of Cancer الربيع الاسود Black Spring ، مدار الجدي Tropic of Capricorn وهذه الروايات تراجم ذاتية ، وهو يتخذ فيها دور البطل الفنان ، هذا الدور الذي ساد الرواية الحديثة . امسا الناحية التي يختلف فيها ميلر عن هذا الطراز الشائع في كل مكان فهي تظرف عزلته وغربته عن المجتمع . فبعد ان كان قد وصل الى مرحلة البروليتاري القح الذي استخلصت منه وحشة المدينة الكبيرة كل الاوهام والثاليات ، اصبح الان رجلا لا طبيا صرفا ، رجلا غربيا

ان كانت منزلة هنري ميلر في مجتمعنا الادبي لما تزل موضع نقاش ، فان ذلك قد يرجع الى انه من ذلك النوع من الكتاب الذين يثيرون اقصى حد من النقد مع كل صحيفة يضيفونها الى مجموع اعمالهم . وعلى هذا فمن السهل تقديره باكثر من قيمته الحقيقية ، ومن السهل ايضا الاقلال من قيمته الفعلية بل وتجاهله كلية . ولك ان تتصور وضعه الحالي الذي يقف فيه ، فالتعالون من النقاد ، ما عدا قلة منهم تربوا في مدرسة ت. س. اليبوت ذات النظريات الجمالية اللاشخصانية ، يميلون الى اهمال شأنه . فنغمته الساحرة ، وطوقسه الشائنة ، وخشونته الدارجة واحتقاره للقوانين الرعية ، كل ذلك يجعله مثلا سيئا بالنسبة لهم . ومن الناحية الاخرى ، يجاهد محبوبه في مدحه ويفرقون في ذلك حتى ليساور المرء الريب انهم على وشك ان يقصدوه . وهم يتحاشون الضرورة التي تدعوهم الى التفرقة بين فن استقلال الشخصية الداخلية للفنان ، والفن الذي يستقل المادة الخارجية من اي مصدر كانت من اجل اغراض الخلق الفني . ومثل هذه التفرقة ضرورية جدا في حالة هنري ميلر ، فعمله شخصي المضمون الى حد واضح ، حتى ان القارئ ليميل في لحظات الغيظ الشديد الى اعتباره مجرد تهويمات ذاتية . ولقد اعلن ميلر مرارا وتكرارا ان اهتمامه لا ينصب على الكتابة بمعناها المعروف ، ولكن على رواية قصة حياته التي لا ينفذ معيها ، تلك القصة التي تمتد لتضم بين جوانحها اخبارا كاملا عن ارائه وخطراته الفلسفية والهيامات وتوقعاته وتهرباته . وكثيرا ما ينساق ميلر وراء ذلك الاعلاء الذاتي الذي تميل اليه الشخصية البوهيمية عادة . وهو في احسن احواله انما يكتب على مستوى من التعبيرية الحقة ، وينتج نوعا من الشعر خالصا ، يحمل طابع البهجة والوحشية في الوقت نفسه . ومن سوء الحظ ان ميلر منذ انهى حياة تطوافه وعاد الى موطنه الاصلي قد اطلق العنان فبانغ في اطلاقه لاشد ميوله سوءا ، وهو الميل الذي يدفعه الى انتحال شخصية الفيلسوف في الاحتفالات والتجولات التي تقيمها الفرق الطبيعية في كاليفورنيا . ومن كتبه التي تستبين فيها موهبته العظيمة كاحسن ما تكون « عملاق ماروسي: The Colossus of Maroussi » الذي نشر في عام 1944 . وهو عبارة عن كتاب رحلات عن بلاد اليونان ذات صفة جد خاصة . وعلى الرغم من انه يحتوي بين دفتيه على معلومات مباشرة عن هذا البلد وعن سكانه ، فهو ينتمي اصلا الى ذلك التقليد الحديث الذي يعنى بتصوير الاقبين من حضارة التقدم ، من البلاد التي عانت فيها الآلة فسادا ورجال الكسب والخسارة والفكرين التجريديين . وهو التقليد الذي سار عليه ملفيل (1) ، وجوجان (2)

(1) هرمان ملفيل (1819 - 1881) رواي امريكي مشهور ، اتخذ البحر اساسا يبنى عليه حبكة رواياته . تتميز رواياته بتبيان الصراع بين الخير والشر . من رواياته : موبى ديك (1851) اومو (1847) بيلي بد التي نشرت لأول مرة عام 1924 .

(2) « بول جوجان » (1848 - 1903) من اشهر الرسامين الفرنسيين الذين عاصروا فان جوج ، وهو يشاركه في ترميم الحركات الفنية المضادة للتأثيرية . وفنه بوجه عام هو فن هروبي من الحياة الخاصة للفنان الى نوع اخر من الحياة . وتبرز غالبية لوحاته فلسفة عامة تمثل في ان الحياة البدائية هي السعادة في ذاتها بعيدا عن المدينة المعقدة .

يعيش حياته في طرقات باريس ونيويورك المفتوحة .

وكان كل اتصال يجريه الراوية في هذه الروايات التي سبق ذكرها بموضوعات ثقافية لا يعمل الا على اشتداد الدوافع الفوضوية عنده ، ولا يعد لديه بعد ذلك أي ملجأ من العالم الخارجي . بل تنمحي عند ذلك أيضا فكرة البيت ، وهو المكان الوحيد الذي يمكن للمرء أن يدعوه صدقا بأنه ملكه ، فهو لا يضم ممتلكاته فحسب ، بل هو يحوي انسانيته كلها . ولا يبقى بعد ذلك من شيء سوى تهويمات العودة الى رحم الام ، وهي تهويمات تملك الزمام الى درجة تؤدي الى ظهور صور متممة تضرب باطنها من فكرة الرحم هذه ، وكذلك الى انبعاث عديد من التوريات والنكات والاستراحات .

واحسن ما يكتب ميلر يكمن في النشر ذي الحيوية والرنين ، بالادوصاف التي يصف بها حياته البروليتارية الثقيلة في الطرقات ، تلك الطرقات التي تعمل سلسلة لا تنتهي من الظواهر التحللية الشاردة فيها على اصفاء لمة من لمات الحلم والاسطورة على تجوالاته بحثا عن امرأة أو استهدافا لدعوة على الغداء . وهو يرى من كل نافذة من نوافذ البحر « جنية البحر وهي تتلوى بين ذراعي الجنون » ، ويتسم في كل مكان عبر الحب « وهو ينبثق متدفقا مثل تدفق الغاز » خارج المسارب الرئيسية ، « الحب الذي يخلو من النوع ومن المطهرات ، الحب الذي يحتضن كل شيء بين دفتيه كما تفضل الحيوانات عند الاشجار » . ويعالج ميلر في هذه الروايات موضوعي الطعام والجنس معالجة منهجية تتصف بدقة الامر الواقع وباحساس قوي متفجر للحاجات الاساسية ، حتى انهما يفقدان معنيهما الحقيقي لدى الكثيرين منا . فميلر يبحث موضوعي الطعام والجنس فيجعل منهما عواطف بطولية ، بل انه يضرب عليهما بستار التعميم فيجعل منهما مبادئ واسسا ، فالانسان الشريد الطريد لا ينظر الا الى الاشياء التي يفتقدتها أكثر من غيرها ، فحالته تلك تجعل منه فوضويا بالظرة ، يعتبر شاذا كل التقاليد والقوانين الاخلاقية أو أي محاولة لضبط عملية التجربة وفقا لاحدى القيم . ان المشكلة بكل بساطة هي البقاء على قيد الحياة ، وكل الوسائل مباحة للوصول الى تلك الغاية . ويتحول الانسان الى شخص أحق ، يمكن خفية في الدعايلز والحانات وغرف الفنادق أملا في ان يضرب الحظ ضربته فينبسب المرء ما يبتغيه ويسمى وراه . وهو يخطف العلوى من الاطفال ويسرق المال من البغايا . أما فيما يتعلق بالحصول على عمل مستقر ، فهو يستطيع دائما ان « يسلى ، وينسى ، ويعلم » ، ولكن لن يقبله الاخرون بطريقة أصيلة أبدا ... « وكل شيء يعمل على ابقائي بعيدا واعتباري طريدا شريدا » .

وتلهذه حقيقة ان العالم في حالة من حالات الانهيار بشعور من الرضا عميق ( « ان الانهيار الجيد للعالم يهرتي » ) ذلك لان الحطام الذي يتطاير في كل الانحاء يبرر ما حدث له بصفة شخصية وبدعمه . وهو يحرز اتساقه الشخصي عن طريق قبول الانهيار كنوع من الاستعراض الرؤيوي يمكن للفنان الذي رفضه المجتمع والذي يسعى الى احياء الفرائز البدائية السديمية أن يحقق عن طريقه بعضا للاسلام والاساطير التي يجاهد ضيقو الافق لكي يقمعوها من النفوس . ولا فائدة من التدخل لوقف هذا التيار او لمحاولة تفادي الكارثة . وكل ما يوسع المرء أن يفعله هو أن يرتد الى مصيره الذاتي المحض . ويعلم ميلر : « العالم على ما هو عليه ، وأنا على ما أنا عليه . انني أعرض نفسي للعناصر المدمرة التي تحوطني ، وأدع كل شيء يثير الدمار بي . انني انحنى وأنطاول لتجنس على العمليات الخفية وذلك لكي أطبع وليس لاصدر الاوامر » . وهو يقول أيضا : « انني لا أدافع ولا أهاجم ، انني على الحياد ... ولو كان الشيء الجوهرى هو أن أحيأ ، فلسوف أحيأ حتى لو أصبحت من أكسلة لحوم البشر » . والفنان لا يصبح حرا في أن يبني أشكالا موضوعية حتى ولو عاش في مجاله المناسب الخاص به ، فلا بد له أن يهجر

« المعيار الادبي الذهبي » وأن يكرس نفسه لخلق أعمال بيوجرافية - وثائق انسانية أكثر منها « أدبا » - ويصور الانسان في قبضة الهميان .

وأعمال ميلر تتفق مع نظرياته ، فرواياته في الحقيقة تذيب أشكال الكتابة وأنواعها في تيار من الانذارات ، والقصص ، والنقد التاريخي العالمي ، والشعر الثري ، والفلسفة الفورية ، وكل هذا يتعرض لضغط وحصر التعبير الذاتي تحت كل التكاليف . فالحقيقة الخارجية تكدر صفو ذاته أيما تكدير ، وهي المضطربة العاجزة أصلا ، فينقلب عاجزا عن تقديم التضحية المستمرة للشخصية التي تتطلبها عملية الخلق ، ولا يستطيع بعد أن يتحمل التعبير عن نفسه ضمنيا عن طريق العمل الفني ككل ، بل يتعين عليه في ذات الوقت أن يخترق حجب كل جزء منفصل من اجزائه وكل دقيقة من دقائق تفصيلاته ويستوعبها . ويظهر كما لو أن هذا الكاتب يقول : « لو ان كل شيء قد خيب آمالي ، فهذا الكتاب على أقل تقدير كتابي الخاص ، فيه قد خلقت كل شيء على صورتي ، انسي أمثلي فيه الها » .

واني لاميل اني الاعتقاد ان هذا هو معنى الجمالية « البيوجرافية » التي مارسها ميلر ودعا اليها في الوقت نفسه في أول أعماله ، والتي يمارسها عدد متزايد من الكتاب رغم أنهم لا يعترفون بها برنامجا منهجيا . وهم لا يمارسونها لاسباب شخصية كما يفعل ميلر ولا حتى يصلون الى النتائج نفسها التي يصل اليها ، بل لان غربة الانسان المتزايدة في المجتمع الحديث ترمي بهم الى اتجاهات نرجسية ، وتدفعهم الى تحمل أعباء ذلك العمل الذي يرسل بهم أيدي سبأ ، فهم يقومون بامتلاك العالم الذي يزرخ الان بالجردات والاغماضات خلال واسطة النفس ، والنفس وحدها . وشعارهم هو : « كن نفسك » وليس « اعرف نفسك » . ولقد كان « توماس وولف » واحدا من هذا النوع من الكتاب ، ولقد أحبطت أعماله حقيقة أنه كان يفتقد الوعي الكافي المطلوب منه لكي يفهم محتنه . ومن الناحية الأخرى ، كان ميلر واعيا كل الوعي بموقفه ، وذلك حينما بدأ يخط أولى رواياته . وبدلا من أن يحاول أن يستعيد الصلة المفقودة بينه وبين العالم ، فهو يتقبل حالة غربته على انها مصيره المحدد الذي لا يتحول ، وبهذا العمل تمكن من أن يحقق بعض الاتفاق مع هذا المصير .

وأذا كانت الحرية هي الاعتراف بالضرورة ، فان ما اكتسبه ميلر هو حرية الوصول الى أبعد مدى في تفويضه للقيم ، وحرية تصوير عدمية النفس التي تقطعت بها كل الاسباب بالروابط الاجتماعية وانطلقت من ارساء الولاء للماضي ومن كل التزام تجاه المستقبل . ولقد فعل ذلك بطريقة كاملة ربما لم يسبقه اليها روائي انكليزي معاصر آخر . وهكذا انقلب نفا في حالة ميلر ذلك الانبات الاميركي المتميز الذي سبق ان قاله الشاعر « ويتمان » ( ٣ ) . نهي كلي بدلا من اثبات كلي ! لا عجب اذن أن يطارد ويتمان أمثالا « وولف » و « هارت كرين » وغيرهما من الأرواح الضالة فيصبحوا وكأنها شبح يطاردهم على الدوام . وهو يتحدث عنه في « مسدار السرطان » على انه « الشخصية الوحيدة التي أخرجتها اميركسا على طول تاريخها القصير ... الشاعر الأول والاخير ... السندي لا يمكن لاحد أن يفك رموزه اليوم ، هو نصب تذكاري تفضيه الكتابة الهيروغليفية الفجة التي لا يجد أحد مفتاحا لها . وان ما يضمني على ميلر أهميته كشخصية أدبية هو تماما قدرته على المجازفة التي

( ٣ ) وولت ويتمان ( ١٨١٩ - ١٨٩٢ ) شاعر اميركي ولد في لونغ ايلاند بالولايات المتحدة . تميز أشعاره بالنزعة المحلية التي يتغنى فيها بروح وطنه وطبيعتة . من دواوينه « أوراق العشب » ( ١٨٥٥ ) .

تمكّنه من ان يوغل في الامور الى اقصى حد ممكن ، وذلك رغم ان اهميته ، كما سبق ان قال « جورج اورويل » ، قد تكون عارضة اكثر منها اصيلة . وهذا يعني ان اقصى حد من السلبية والغرامية وقبول الشر الذي تزخر به رواياته ، كل هذا ينحو الى البرهنة على انه « لا يمكن انتاج أي أدب رئيسي هام الا اذا اتخذ العالم لنفسه شكلا جديدا » .

وميلر يناجي في جيمس كته الدادين (٤) والسيرباليين والباحثين عن « الغرابة » ودعاتها أينما وجدوا . وربما لانه اكتشف المذهب الطبيعي في وقت متأخر في حياته فهو ساذج بالقدر الذي جملة يأخذ نظامهم الذي يعتمد على النسوة الشفوية بقيمتها الظاهرية ، ويقتبس من أسلوبيهم ومن نداءاتهم التي تبث الحمية في النفس . وهو يحب في الوقت نفسه أن يربط نفسه بالكاتب د . هـ . لورنس الذي لم يكن طليعيا على الاطلاق بالمعنى الباريسي المعروف من هذا الاصطلاح . ومن الواضح انه يعتبر نفسه خليفة لورنس . ولكن الحقيقة انه لا توجد أي نقاط للمشابهة بينهما الا فيما ندر ، وان افضل طريقة لاثبات ذلك هي المقارنة بين موقف كل منهما تجاه الجنس .

وميلر فوق كل شيء سلمي من الناحية الاخلاقية في رواياته ، بينما تدعم لورنس موهبته السامية تجاه النشاط الاخلاقي ، رغم انه كان هو الآخر مغلوبا على امره بقربة الانسان الحديث ، ولقد كان سامي الرؤية لدرجة أمكنه معها أن يصدق بإمكان وجود تقيير في العواطف ، وانه قادر على صد التيار الذي استمر يجري طويلا في اتجاه واحد . ومن هنا نبعت فكرته عن تحقيق الذات كوسيلة من وسائل الاتكامل . ورغم ذلك فان ميلر السذي يشكل الجنس الموضوع الرئيسي في قصصه ، يقدم العلاقات الجنسية كلها دون استثناء تقريبا باصطلاحات المعهر والفجور ، وهي الاصطلاحات ذاتها التي كان يزدريها لورنس . فمناظر الفوابة التي لا تعد ولا تحصى التي يصفها ميلر بطريقة عرضية خالية من المسرة وبذلك الالاحاح على اعادة استخراج كل التفاصيل البذيئة السفيهة ، هي كلها تقريبا على المستوى الذي يسمعه المرء في الطرقات والازقة . وهو لا يمتلك دنوية موللي بلوم (٥) ، ولا هو يهتز ويرتجف باختلاجات لورنس المقدسة . وهو يعالج الوظائف الفزلية بنوع من المزاج الخشن ، فلا يكاد يوجد أي شعور لديه بأدمية شريكه في الجنس . ان ما يريده حقا ويهدف اليه هو تقديم عرض « للقصص الزوجي في احدى الجحور السوداء في كلكتا » . ولا يعني هذا اننا نعرضه لتهمة كتابة أدب الدعارة ، بل على العكس ، فهناك دافع أدبي محدد وراء تركيزه على التجربة الجنسية ، أو بالأحرى هناك دافع مزدوج : الاول استخدام هذه التجربة لنقل شعور من الفوضى الثقافية والاجتماعية وذلك لنقل وجهة نظر عممية ، وثانيا فصول طبيعي لا يرتوي . وواضح ان ميلر ولورنس ضدان اكثر منهما توامان .

ومن المستطاع اسقاط ادعاءات ميلر بانه مرشد للحياة والادب أو نبي للقدر ، رغم كل ما يتذكره المرء من مقال كتبه عن بروست وجويس بعنوان : « عالم الموت » . وهذا المقال قطعة نقدية ملهمة حقا . ورغم ذلك فهو يبدي في رواياته الثلاث تميزا ملحوظا في

( ٤ ) الدادية مذهب فني ينادي أصحابه بالثورة على الفن وعلى الحياة ، والغاء أي جدية تربطهم بهما ، واختاروا اسم دادا عفوا دون قصد عنوانا لمذهبهم . من أنصهاره تريستان تزارا وهو جو بول .

( ٥ ) موللي بلوم ، بطل رواية جيمس جويس العظيمة « يوليسيس » . وهذه الشخصية هي المقابل الحديث لشخصية « بنيلوب » الزوجة الوفية في أوديسة هوميروس ، وهي تنقلب في موللي بلوم الى امرأة حسية شهوانية تخون زوجها .

الترجمة للمفكر الهائم على وجهه وفي التفني باناس الادوار التحنية من المجتمع الذين اثار فيهم بعض الصلات الخفية غير المرئية بالفن والادب عداوة دفينه للنمط العادي للحياة ، وعزما على الهروب من عجلة النصب والسعي حتى ولو كان الثمن هو الجوع والاحتقار . ولقد قام ميلر بنوع جديد من الانتقاء حينما بدأ يعالج هذا الموضوع . وهناك عرق من ديكنز أيضا في رواياته يظهر في الصور الهزلية التي تطفو على السطح مرة ومرة ، مثل المونولوجات الثائرة الفكهة للصحفيين « كارل » و « فان نوردن » في رواية « مدار السرطان » . والحقيقة ان نجاحه يفوق غضته سوا . وهو يضرب بسهم فسي اتجاهات الرجل المتوحش ، ولكن ما يفتقده حقا هو منطق أبطاله الأوروبيين الميت و صفاؤه .

ورغم ان باستطاعته أن يضارع سيلين (٦) شراسة ووحشية ، فهو لا يبلغ ما يبلغه من الرصانة والانساق . وآخر اثر تخلفه فينا رواياته هو اثر الاميركي انهادر الانيس بفطرتة السذي خرج من الجحيم لتوه . وربما يكون ميلر وقد اكتسب الان قدرا من اعتراف العالم واستقر في مقامه بوطنه ليتلقى فروض الولاء من معجبيه ، يبدو وكأنه دخل طورا جديدا . وليس هناك سوى عمله وحده يذكرنا بسدور الارعن البوهيمي الذي اتشح ميلر بمسوحه في سنوات منفاه وقام به بمقدرة واقتناع تامين .

ترجمة : ماهر البطوطي

القاهرة

( ٦ ) « لويس فردناند سيلين » ( ١٨٩٤ - ١٩٦١ ) أديب فرنسي برز في الثلاثينات من هذا القرن . تتميز أعماله بالتشاؤم الصارم والعقيدة التي تنادي بتفاهة الانسان وحقارته في هذا الكون . كما تتميز رواياته بالحيوية والحساسية الفائقين . من رواياته « رحلة الى غور الليل » ( ١٩٣٢ ) ، « موت على مراحل » .

انتظروا منشورات

دار المصراطي

مؤسسة ثقافية

للطباعة والنشر والتوزيع

طرابلس الغرب - ليبيا

شارع جدة المتفرع من شارع الاستقلال

رقم ١٠ - ص.ب ٢٥٠٠